# مركزية الحدس في نقد كنط للميتافيزيقا:

# نظريته في البرهان الهندسي مدخلاً

حمد أحمد الريّس

## القسم الأول: "في خلاء العقل المحض" - كنط وإشكالية التأسيس العلمي للميتافيزيقا

### 1

شغل هاجس "تأسيس الميتافيزيقا كعلم" مكاناً رئيسياً في مشوار كنط الفلسفي، وبخاصة مشروعه في **نقد العقل المحض**. فهو يحدد الغرض من مشروعه النقدي في غير مكان بوصفه الخطوة التمهيدية الضرورية لتأسيس الميتافيزيقا علمياً. أما الميتافيزيقا، فيصنفها كنط ضمن المباحث القَبْلِيَّة، أي تلك التي تتخطى بطبيعتها مجال التجربة الحسية، نظراً لطبيعة المواضيع التي تبحث فيها:

"في هذه المعارف التي تتخطى العالم الحسي وحيث لا يمكن للتجربة أن تعدِّل أو تصحِّح، تقع مباحث عقلنا التي نَعُدّها، من حيث الهدف النهائي، أفضل أهمية وأسمى بكثير من كل ما قد تفيدنا به الفاهمة في حقل الظاهرات [وهو حقل التجربة الحسية]، فترانا نميل إلى محاولة كل شيء والمجازفة حتى بأن نخطئ، ولا نتخلى عن أبحاث بمثل هذه الأهمية لأي سبب سواء أكان صعوبة أم ازدراء أم لا مبالاة. ومشكلات العقل المحض هذه التي لا مفر منها هي **الله والحرية والخلود**. أما العلم الذي ليس هدفه النهائي مع كل وسائله سوى حل تلك المشكلات فيسمى **الميتافيزيقا**." (47)[1]

بسبب استثارة هذه المباحث للعقل، وتوق الأخير لكنه أسرارها مهما بعد المنال، وتطلعه لسبر مغاليقها كيفما ضاقت السبل، ارتأى كنط بأن الحاجة قد ألحّت على الفلسفة بكافة أفرعها، بما فيها الميتافيزيقا، إلى علم يعيّن إمكان معارفها، بل "إمكان كل المعارف القبلية، ومبادئها وماصدقها" (م.ن.) على وجه العموم. ولا عجب في ذلك، فمما لا شك فيه أن مواضيع الميتافيزيقا "تخرج حتى عن حقل جميع التجارب الممكنة، ويبدو أنها توسّع ماصدق أحكامنا فيما يتعدى جميع حدودها، بواسطة أفاهيم لا يتناسب معها أي موضوع قد يعطى في التجربة" (م.ن.). والحال، فكنط يصوّر مصير الباحث في الميتافيزيقا كالربان الذي تتقاذفه ظلماء اللجج، لا يسكن له شراع فيقف مستجدياً لليابسة تخوماً، ولا ينقشع من حوله الضباب فيفوز بهداية نجم أو بشعاع من منارة بعيدة.

---

[1] جميع أرقام الصفحات الواردة في متن النص تشير إلى موقع الاقتباس في **نقد العقل المحض**، ترجمة موسى وهبة، دار الإنماء القومي، بيروت، 1988. وقد اعتمدت قدر المستطاع على تلك الترجمة. في حال اختلافي بشكل ملحوظ مع بعض خيارات المترجم اللغوية أو مع صياغته لبعض العبارات، فقد حرصت على الإشارة إلى ذلك، مورداً موضع الاختلاف عند الحاجة. وقد اعتمدت في مراجعتي لترجمة موسى وهبة على الأصل الألماني، إضافة إلى الترجمة الإنجليزية المعتمدة، طبعة كامبريدج، للمقارنة. راجع كشف المصادر.

هذا العلم الذي يعيّن إمكان المعارف الميتافيزيقية تحديداً، والقبلية عموماً، هو ما سعى كنط لتأسيسه في **نقد العقل المحض**. فقد سخّر صاحب النقد مشروعه في ذلك الكتاب لرسم حدود التعقل فيما جاوز التجربة وتسامى عن الحس، نعني تلك المعارف الاعتبارية التي تختص بها الفلسفة، وبخاصة الميتافيزيقا. وقد رأى كنط أن لفقه تلك الغايات أصولاً، وأن لإقامة الحجة فيها نواميساً تغاضى عنها الأسلاف، إما استسلاماً لعجز اعترى الفكر، أو استكانة لريبة شابت النتائج، أو تعصباً لرأي حين لا يكون من التعصب، في غياب الشاهد، بُدّ. بذلك أصبح حال الميتافيزيقا - نعني الميتافيزيقا النظرية، وهي الشاغل هنا، كما كانت لصاحب **النقد** - أشبه بالرقعة البالية، تتناهشها أنياب الشك فتزيدها تفتتاً، وتتجاذبها قبضات التعصب فتمعنها تغضناً. تعسرّ الأمر وتعثرت الخطى، حتى أجبر كنط على اختزال المواقف الممكنة من الميتافيزيقا جميعها في هذين الإثنين: فإما غلوّ في الشك أو إغراق في التعصب، واشتق لهذين الموقفين لفظي "الريبية" و"الدغمائية". أما الريبية، فنزعم أن أمرها معروف للمطلع، ولو بؤلفة اللفظ. وأما الدغمائية فارتأينا أن نفرد بشأنها مقالاً، ولو في عجالة، نظراً لاستعجام المصطلح.

إن أردنا اختصار الدغمائية بكلمة، قلنا أنها نهج العقل في إثبات القضايا أو نفيها استناداً إلى محض أفاهيم؛ على هذا المعنى اصطلحها كنط (40). أما اللفظ نفسه فمشتق من كلمة "دغمى" الإغريقية (dogma) كما عرّبها موسى وهبة، ومعناها "المعتقَد". يؤدي هذا الأفهوم[2] وظيفة هامة في مشوار كنط النقدي، بل في رحلة المثالية الألمانية بشكل عام. فها كتابات فيشته وأتباعه، وشيلنغ وحواريه، وهيغل وحلفائه، تزخر باتهام كل رأي مخالف بالدغمائية، ورمي كل مقولة لم ينعم الاعتبار فيها بشبهة الدغمى. وسواء أخطأ هؤلاء أم أصابوا، فإن العبرة تكمن في كون تلك الحركة - نعني المثالية الألمانية - قد أجمعت، فيما أجمعتْ عليه، وهو قليل، على النأي بالفلسفة عن توسّل الأفاهيم المجرّدة لإقامة الحجج.

للناظر في تاريخ الفلسفة أن يستغرب أمر تلك النزعة في فكر الألمان: أوليست الفلسفة، كما عهدناها، علماً يقوم على محض أفاهيم، من جهة استناد نتائجه على حججٍ محض عقلية؟ بلى، ولكن: ثمة فرق بين ما اتسق بالمنطق، أي بالفهم المجرد، وما حقّ بالفعل. فاليقين، وهو ثمرة البرهان، لا يتحصل سوى لمن دعّم أقواله بشواهد من صلب ذات الموضوع. أما من اعتمد على شهادة الحس وكفى، فأحوال الحس في دوام تقلب؛ وأما من كان حسبه رصانة المنطق، فالمنطق محض آلة كما قال ابن سينا: تعصم الفكر عن الخطأ،[3] لكن لا تكتسب من ذاتها المعارف. لذا كان مآل تلك الأقوال الصواب على وجه الاحتمال، وذلك على أفضل تقدير، أو تخبط في غموض الدلالات، وهو الأسوأ. ذلك منحىً انتحاه المثاليون الألمان، وقد تشربوا أحكامه من كنط، كبيرهم الذي أُوقِظ ذات نهار، تحت شمس عصر مضى، من "سباته الدغمائي".[4]

من هذا الباب علا صوت كنط متهماً أسلافه بإهمال البحث في أصل إمكانية تعقل مزاعمهم الميتافيزيقية، ناهيك عن إثباتها، والاستعاضة عن ذلك بالشروع مباشرة "بتشييد بناء قبل أن [يتأكدوا] من أسسه [...]، وبالتالي من دون أن [يطرحوا] مسألة

---

[2] سنتبع في هذا البحث اصطلاح موسى وهبة؛ راجع مقدمة المترجم **للنقد**، 12.

[3] أبو علي ابن سينا، **الإشارات والتنبيهات**، شرح نصير الدين الطوسي، تحقيق سليمان دنيا، ج 1، ط 3، دار المعارف، القاهرة، 1983، 117.

[4] ولم ينجح في إيقاظه سوى ذلك الشكاك الفذ، ديفيد هيوم. حول أهمية فلسفة هيوم، والفلسفة التجريبية البريطانية عموماً، في سياق فلسفة كنط، راجع: محمود زيدان، **كنط وفلسفته النظرية**، ط 3، دار المعارف، القاهرة، 1979، 49-51.

كيف يمكن للفاهمة أن تتوصل إلى كل هذه المعارف القبلية، وأي ماصدق ومصداقية وقيمة يمكن أن يكون لها" (47-48). لنا الآن أن نفهم ما دعى الحكيم إلى الإمعان في تقريعهم؛ فمطالب الميتافيزيقا لم تعد أكثر من غاية "نُشدتْ دون تروٍّ" (31) — كيف لا وقد انتهج طلابها، لأسباب لا يتسع لها هذا المقام، منهجاً "دغمائياً" وثوقيّاً، "يحاول بثقة تحقيق الهدف دون أن يتفحص مسبقاً قدرة العقل أو عجزه أمام مشروع ضخم كهذا" (47).

والحال، فقد انتبه كنط إلى أن الوقت قد حان لتشييد عرش الفلسفة على بساط غير الذي اعتادته، وإقامة أعمدتها على أرض غير التي ألفتها لما يربو على ألفيّ عام. فكان لا بد لهذا التأسيس الجديد أن يقوم، أول ما يقوم، على ترميم ما عطب من البناء القديم. من هنا رأى كنط ألّا بد من التوجه لتأسيس الميتافيزيقا كعلم، لا لمجرد حفظ ماء الوجه أمام شقيقاتها من المعارف، بل أسوة بتلك الأخيرة أيضاً. فها المعارف الرياضية، التي أسس لها قدماء الإغريق، وعلى رأسها الهندسة، تسير منذ عصور بعيدة بأوثق الخطى على طريق العلم، مهتدية بيقين براهينها. وها العلوم الطبيعية، بعنفوان الشباب - وهي التي تأسست في عهد قريب - يتجلى في ثنايا التجربة صدق مبادئها. لذا وجدنا صاحب النقد، في تصدير كتابه، يقف أمام الإغريق الأوائل إجلالاً، وهم من بفضلهم "سلكت الرياضة درب العلم الآمنة، منذ عصور موغلة في القدم" (32). وإذ يتبع مديحه للرياضيات بكلمات مشابهة عن تطور مباحث الفيزياء في القرن السادس عشر، على يد الفحول النوابغ من أمثال غاليليه وبيكون، نجده يسارع بالتعليق على مصير الميتافيزيقا البائس بالمقارنة، تعليقاً ارتأينا إيراده بالكامل لأهميته في إيضاح تشخيص كنط لحالة مباحث الميتافيزيقا الحرجة:

"أما الميتافيزيقا، وهي المعرفة العقلية الاعتبارية المعزولة تماماً والمترفعة عن دروس التجارب [...] والمعرفة التي على العقل، من ثم، أن يكون فيها تلميذ نفسه، فلم يحالفها الحظ، حتى الآن، كي تتمكن من انتهاج درب العلم الآمنة، مع أنها أقدم من أي معرفة عقلية أخرى، ومن أنها ستبقى حتى لو فنيت هذه بأسرها وابتلعتها لجة بربرية ماحقة؛ ذلك أن العقل يتعثر في الميتافيزيقا باستمرار، وحتى عندما يريد أن يرى قبلياً (كما يدعي) إلى تلك القوانين التي تثبتها أكثر التجارب بساطة، وفيها يجب على المرء أن يعود أدراجه مراراً وتكراراً لأنه يجد أن الطريق لم تؤدِّ به إلى حيث أراد. أما اتفاق أنصارها على المزاعم فهو ما زال بعيد المنال. وهي قد غدت بمثابة حلبة مخصصة أصلاً لتدريب القوى في المبارزة، لم يستطع فيها أي من المتبارزين أن يفوز يوماً بأصغر موقع وأن يحافظ على ما فاز به محافظة دائمة. فما من شك إذن بأن سلوكها كان حتى الآن مجرد خبط عشواء، والأدهى في الأمر أنه خبط بين مجرد أفاهيم." (33-34)

وكأن وضع الميتافيزيقا كما وجدها كنط قد شابه وضع التأريخ كما وجده ابن خلدون. فلسان حال كنط يشكو ضعف حالها، إذ همّ بها وقد صارت - إن أردنا استلهام عبارة ابن خلدون[5] - فناً واهياً مختلطاً، ارتبك فيه الناظر، وانتحى به العامة كل منحى، متضاربين فيه الآراء، متخرصين فيه الأقاويل.

[5] تحديداً: عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، ج 1، ط 1، تحقيق وتعليق عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، 2004، 115.

ثم يعود كنط، بعد النص الذي أوردناه، ليصور مشروع النقد كاملاً في إطار المقارنة بين الميتافيزيقا من جهة وعلمي الهندسة والفيزياء من جهة أخرى: "إن محاولة تغيير أسلوب الميتافيزيقا السابق بالقيام بثورة كاملة فيها اقتداء بعلماء الهندسة والطبيعة، هي إذن شاغل نقد العقل النظري المحض هذا" (36). عسيرٌ على الباحث، وإن تعنّى، إيراد شاهد أكبر دلالة على اتخاذ كنط منهج الهندسة والفيزياء النظرية نبراساً يستعين به على نقد منهج الميتافيزيقا كما ورثه عصره.

2

هذا عن مواقع مقارنة الفلسفة بالعلوم الأخرى في التصدير. أما في المدخل، فيخص كنط العلوم الرياضية بالمقارنة مع الميتافيزيقا دون العلوم الطبيعية، ذلك أن حقل العلوم الرياضية أقرب للمعارف الفلسفية من العلوم الطبيعية: فالرياضيات تعتني بمواضيع مجردة كلياً، شأن الكموم والنسب والمقادير، وهي أمور تخرج بطبيعتها عن إطار التجربة. لذا نقرأ المقارنة التالية في الباب الثالث من مدخل الطبعة الثانية من **النقد**:

"حيث أن قسماً من هذه المعارف [القبلية]، كالمعارف الرياضية، قد كان من زمان بعيد في حوزة اليقين، فقد زيّن لنا [أي نحن معشر الفلاسفة] حسن الفأل بالأقسام الأخرى [من المعارف القبلية] على الرغم من أنها قد تكون من طبيعة مختلفة تماماً. أضف أننا خارج دائرة التجربة، وأنّا على يقين من أن التجربة لن تناقضنا. ويبلغ الزهو بزيادة معارفنا حداً لا يسعنا معه وقف تقدمنا إن لم نصطدم بتناقض واضح. لكن، قد نتجنب هذا التناقض بنسج أوهامنا بتأنٍ دون أن يقلل ذلك من كونها أوهاماً. فالرياضة تعطينا مثالاً ساطعاً على كيف يمكن أن نذهب بعيداً في المعرفة القبلية بمعزل عن التجربة. [...] وقد تتخيل اليمامة الخفيفة، وهي تشق الهواء الذي تشعر بمقاومته في طيرانها الحر أنها ستنجح على نحو أفضل في الخلاء. هكذا غادر أفلاطون العالم الحسي [...]، فجازف خارج هذا العالم على أجنحة الأفكار في خلاء العقل المحض. ولم يلاحظ أن جهوده لم تجعله يتقدم في الطريق لأنه لم يكن لديه أي موضع يرتكز إليه لاستعمال قواه كي يحقق نقلة لعقله." (48)

فإن تساءلنا عن سر تخبط الميتافيزيقا عبر العصور بين محض أفاهيم، ومراوحتها دون أن ترسي تفانينها على نهج قويم، أو مسلك سويّ يؤمّن لاستدلالاتها الخلوص من خُلف الآراء إلى سكينة اليقين، يأتينا الرد ضمناً في الاقتباس السابق: فالمسألة، كما يرسمها كنط، مسألة افتقار الميتافيزيقا إلى حجر زاوية يؤدي دور الشاهد الذي تعود إليه مزاعمها جميعاً، أي افتقاد العقل حين يخوض غمار الميتافيزيقا إلى "موضع يرتكز إليه لاستعمال قواه كي يحقق نقلة"، بمعنى نقلة من قضية إلى قضية في سياق الاستدلال. والقصد، ضمناً، هو أن العلوم الرياضية قد عثرت على موضع مثل هذا منذ القدم، صارت بفضله "من زمان في حوزة اليقين": فما هو حجر الزاوية المقصود في العلوم الرياضية؟ ولماذا ظلت المعارف الميتافيزيقية أبداً خارج حوزة اليقين، بل كانت أشبه بالدمية في يد كل من تخرّص القول فتوهّم الإصابة، تقلبها كيفما شاءت؟ السؤال الأخير هو هو شاغل **النقد** كما ألمحنا أعلاه، وهو الذي سنأخذ بيدك إليه في القسم الرابع من هذا البحث.

أما السؤال الأول فتتلخص إجابته في أفهوم واحد، سيعود إليه نظرنا مراراً، وسيرجع صداه إلى مسامعنا ليشغل الفكر تكراراً، ألا وهو "الحدس". فإنه قد تحصل للعلوم الرياضية، حسب كنط، حدس تعيد إليه مقولاتها بقطع اليقين، وهو ما لم تتحصل عليه الميتافيزيقا بعد. فما يدعوه كنط بالحدس إنما هو أساس الفكر ومنتهاه، وهو المصدر الذي ينطلق منه الاستدلال والمرجع

الذي تعود إليه دلالة كل أفهوم، فيُرجَع إليه معناه. لا داع لإقامة الحجة على مكانة هذا الأفهوم في سياق **النقد**، فها كنط يقدّمه على باقي الاعتبارات، إذ يفتتح بتعريفه أولى فقرات الكتاب، بعد مادتي التصدير والمدخل:

"الحدس هو ما يصل معرفة ما بموضوعات ما بلا توسط، أيّا كانت الطريقة أو الوسيلة التي تتصل بها المعرفة بموضوعاتها. فإذا كان الفكر وسيلة، فالحدس غايته.[6] [...] والقدرة على (تلقي) التصورات بالطريقة التي بها نتأثر بالموضوعات الوافدة، تسمى الحساسية. فبواسطة الحساسية إنما تعطى لنا الموضوعات، وهي وحدها تزودنا بالحدوس. لكن الفاهمة هي التي تفكر هذه الموضوعات ومنها تتولد الأفاهيم. ويجب على كل فكر أن يكون على صلة في النهاية بحدوس [...]." (59، بتصرف)[7]

لا بد للفكر إذن أن يتصل بحدس لينتقل من تخوم التأمل إلى مواقع التعرف ("التفكير هو الفعل الذي يقوم على إقامة صلة بين حدس معطى وموضوع" (166))، دون أن يعني ذلك أن بإمكان الفكر تجاوز الحدس للنفوذ إلى موضوعه مكاشفة: وكأننا بالموضوع يتجلى للفكر شيئاً فشيئاً بتوسط الحدوس، أو فلنقل إنما الفكر يولّد موضوعه توليداً، بالتأليف بين شتات الحدوس. والحدس، كما نصّتْ العبارة، لا يتأتى للفاهمة سوى من باب "الحساسية"، أي - للتبسيط - من معطيات الحس في الزمان والمكان. فكأننا بالفكر يقوم بالتعرف على موضوعه تدرجاً عبر توليف الحدوس المتباينة، بما هي المعطى الوحيد الذي يتمثل فيه موضوع الفكر مباشرة، ولو بشكل جزئي تتعاوره المناقص وتتناوبه الشكوك.

الأهم من هذا كله هو دور الحدس في الشهادة على المعرفة. فمن دون توسط الحدس، تبقى القضايا محض أقوال، بل تقوّلات، تصيب - إن أصابت - على وجه الاحتمال، فتكون بذلك قضايا إشكالية، وذلك على أفضل تقدير. فالحدس هو ما يتوسله الفكر لربط أفهوم بآخر بشكل موضوعي واقعي، أي بشكل مفتوح للتفحص، مكشوف للعيان. في ذلك يقول كنط:

---

[6] وجدنا أن ترجمة موسى وهبة لهذه العبارة يلفها الغموض، على الرغم من إخلاصها للأصل، وهو بدوره صعبٌ مستغلِق. فارتأينا إعادة الصياغة، ملتزمين الأمانة لوظيفة المصطلحات الأساسية في الأصل. وإليك ترجمة موسى وهبة: "أيّا كان نمط الصلة التي قد تكون بين معرفة وموضوعات وأيّا كانت الوسيلة فإنه ما به تقوم صلة لا متوسطة بينهما، وما يصبو كل تفكير إلى توسله هو الحدس."

[7] هامش مطوّل لم نتحرّى فيه الإطناب، إنما لم نرَ منه بدٌّ لمن اهتم بفقه هذا المصطلح: يسعفنا الأصل الألماني في فقه الغرض من هذا الأفهوم، وإن استخدم كنط الصياغة اللاتينية (intuitio) أيضاً في العديد من المواضع. فكلمة Anschauung في الألمانية، وهي ما يترجَم بـ"الحدس"، ليس لها تلك الرنة العرفانية التي لشقيقتها العربية. بل هي اسم مشتق من فعل عادي، يستخدم يومياً في اللغة الألمانية، وهو فعل anschauen، ومعناه "النظر في" أو "النظر إلى" أو "المراقبة" و"المشاهدة"، وبذا يكون الاسم المشتق منه، Anschauung، هو "المنظور فيه" أو "المنظور إليه" أو "المُشاهَد" بالنسبة للأفهوم. يذكر جميل صليبا في معجمه الفلسفي ما يلي عن الحدس: "الحدس في اللغة: الظن، والتخمين، والتوهم في معاني الكلام والأمور، والنظر الخفي، والضرب والذهاب في الأرض على غير هداية، والرمي، والسرعة في السير، والمضي على غير استقامة، أو على غير طريقة مستمرة. [...] والحدس الذي اصطلح عليه الفلاسفة القدماء مأخوذ عن معنى السرعة في السير. قال ابن سينا: "الحدس حركة إلى إصابة الحد الأوسط إذا وضع المطلوب، أو إصابة الحد الأكبر إذا أصيب الأوسط، وبالجملة سرعة الانتقال من معلوم إلى مجهول" [...]. وقال الجرجاني في تعريفاته: "الحدس هو سرعة انتقال الذهن من المبادئ إلى المطالب." وقال التهانوي: "الحدس هو تمثل المبادئ المترتبة في النفس، دفعةً واحدة من غير قصد أو اختيار، سواء بعد الطلب أو لا، فيحصل المطلوب"، والمقصود بالحركة وسرعة الانتقال تمثل المعنى في النفس دفعة واحدة في وقت واحد، كأنه وحي مفاجئ، أو وميض برق" (**المعجم الفلسفي (بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية)**، ط 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، 451-452). ثم يتبع صليبا ببعض ما أتى به المحدثون في الحدس، بدءاً بديكارت: "الحدس عند ديكارت هو الاطلاع العقلي المباشر على الحقائق البديهية" (م.ن.، 452). ونرى من هذه الأمثلة تقلبات معنى الحدس تاريخياً، إلا أننا نتبين أيضاً اشتمال كافة هذه التعريفات على مقصد متشابه، من جهة الدلالة على تصور بديهي يتبدى للناظر مكاشفة. – للمقارنة، راجع: عبد الرحمن بدوي، **إمانويل كنت**، وكالة المطبوعات، الكويت، 1977، 180-181.

"إنه لأمر مثير للاهتمام أن لا يمكنني رؤية إمكان الشيء بمجرد المقولة [يعني المقولات بصيغتها الأرسطية، التي تناولها كنط في جزء "التحليل الترنسندالي"، وهي بمثابة الأصول العامة للفكر]، بل أن يجب أبداً أن يكون لدينا حدس نعرض بواسطته الواقع الموضوعي للأفهوم [...] المحض. [...] فطالما ينقصنا حدس، إذن، فإننا لا نعرف ما إذا كنا نفكر شيئاً بالمقولات أو حتى ما إذا كان ثمة شيء في أي محل يمكن أن يلائمها. [...] فهو قول ليس فيه على الإطلاق ما يمكن أن يصلح لكي نتخطى الأفهوم المعطى ونربط به أفهوماً آخر." (161-162)

ارتأينا أن نبرز أهمية مفهوم الحدس في فلسفة كنط منذ البدء لكي يكون مرجعاً لنا فيما يلي. والحق أن كنط قد رأى بأن اعتماد مبحثٍ ما على الحدوس هو ما يحدد علميته، بل إمكانية التحصل على معارفه أصلاً. فالمباحث الرياضية ممكنة ومؤسسة علمياً لأنها تعتمد على حدوس تناسب موضوعاتها، والميتافيزيقا وباقي المعارف الفلسفية تبقى دون مستوى أخواتها من العلوم المحضة لعجز العقل عن العثور على حدوس تناسب موضوعاتها. هيذي الأطروحة التي يعتني البحث الراهن بتفصيلها.
وإنني لأزعم بأن لمقارنة كنط بين الرياضيات من جهة، وبالأخص الهندسة (الفرع الذي تولاه كنط بالعناية أكثر من غيره)، والميتافيزيقا من جهة أخرى، أكبر فائدة للإحاطة بمغزى مشروعه النقدي، وبتطور الفلسفة من بعده على وجه العموم، وبخاصة الفلسفة المثالية الألمانية.

3

أما مقارنة كنط بين البرهان الهندسي والاستدلال الفلسفي فتدور رحاها حول محور رئيسي، هو تحصل الهندسة - كما ألمحنا - على حدس تضمن يقين براهينها بالركون إليه، وافتقار الفلسفة لحدس يؤدي الدور نفسه ويضمن لها بذلك أن تتأسس كعلم. من هذا التوصيف، يتضح أن كنط قد اعتقد بأن شرط تحول منظومة ما من القضايا إلى علم إنما هو إثبات تلك القضايا – أو "إنشاء أفاهيمها"، حسب تعبيره – في حدوس. فالإثبات اليقيني عنده ما هو إلا الإثبات الحدسي، كما سيأتي بيانه فيما يلي؛ الأمر الذي يجعل مقياس العلم لدى كنط هو تحصل العقل البشري على حدس يقيني يخص ذات مادة المعرفة المعنية.

فقد لعب منهج الهندسة في البرهان دور المعيار الذي عليه قاست الميتافيزيقا - واهمةً، بزعم كنط - استدلالاتها. ففي حين تتمكن الهندسة من إثبات قضاياها قبلياً، بفعل اقتران كل من قضاياها بحدس معين، احتج كنط بأن الميتافيزيقا عاجزة عن ذلك أتمّ العجز، لافتقارها إلى مثل تلك الحدوس. من هنا أطروحة هذا البحث: فإن نحن أردنا فهم دافع الثورة التي اعتزم كنط إحداثها في الفلسفة، بل التي قام بها على أسلافه بنفسه، والمغزى من اصطلاحاته وتآليفه وقياساته، وبالأخص تناوله لمشاريع الميتافيزيقا كما وجدها بمُحكم النقد واستنباط منابع الأدلة لها وعليها، انتهاءً إلى قوله بعدم إمكان تأسيس الميتافيزيقا بشكلها الحالي كعلم ـــ أقول، إن أردنا التعمق في فهم ذلك كله، توجب علينا الإحاطة بكيفية فهمه لعملية البرهان الهندسي.

عليه، فلنحصر خطوات البحث في خطوط عامة، تهيأةً لاستيعاب مقاصده، وتوثيقاً لخطى القارئ بإجالة النظر في مناحيه. نظراً لانبناء العلوم من قضايا قد تم الاستدلال على صوابها، هي لبناتها الأساس ودعائمها الثابتة، ارتأينا البدء بتفصيل أنواع القضايا عند كنط، من جهة مصدر اشتقاقها، أباستقلال عن التجربة أم لا. ومن باب عنايتنا بمباحث قبلية - نعني الميتافيزيقا والهندسة - فقد ارتأينا التركيز على ما دعاه كنط بـ"القضايا القبلية" دون غيرها، وهي القضايا التي تتألف منها حجج الفلاسفة والرياضيين. فإن أوفينا تلك المبادئ شرحاً، انتقلنا إلى تناول القضايا القبلية نفسها من وجه نوعية المضامين التي تحتملها،

والمعارف التي يمكن تحصيلها عبر توسّلها. من هذا الوجه، يفصّل كنط القضايا إلى تحليلية وتأليفية. فإذا نحن بيّنا فساد رأي القائلين بتمكن الأولى من إثبات المعارف، وقررنا وجوب اشتمال العلوم على الأخيرة بالحصر، تهيأ لنا البحث في أمر الهندسة، من حيث كونها علماً قبلياً تأليفياً. وسنحرص حينها على إمعان النظر، بما يتيحه لنا المقام، في كيفية تمكن الهندسة من البرهنة على قضاياها بالضرورة، كاشفين عن دور الحدس في إثبات تلك القضايا، مبيّنين سبب إطلاق كنط اسم البرهان الحدسي على البراهين اليقينية. من هذا الباب، نتجه إلى اختتام بحثنا بقياس استدلالات الميتافيزيقا على منهج البرهان الهندسي كما أتى به كنط، وتبيان حجته على فساد رأي القائلين بإمكانية تحصل الأولى على براهين يقينية، تقارع في ضرورتها وكليتها يقين البراهين الهندسية، ملتفتين أخيراً إلى مصير الميتافيزيقا المرتقب بعد أن أقام عليه كنط الحجة، بل وأصابه في مقتل، كما اعتقَد.

4

إن ما دفعنا لتناول بعض المناحي المبدئية من الفلسفة الكنطية ولو بمُقتضب الشرح، شأن تقسيمه للقضايا إلى قبلية وبعدية، وتأليفية وتحليلية، لم يكن مجرد الحرص على تلافي الإبهام وإحكام الدلالة عند تناولها في سياق الكلام، بل كون القول في كنط بالعربية ما زال في طور تكوّنٍ ونموّ، وكون الملامح الفارقة لفلسفته لا تزال متوارية إما خلف تكرار المصطلح الأصلي أو خلف التذرع بتأويل يحتمل من المعاني أكثر مما يوضّح. والواقع أنه لا بد للباحث عندنا من توسل هذه المساومات بصرف النظر عن نية التحديد والبيان، لا لشيء إلا لتعذر العمل التأسيسي ولشح الأبحاث العربية نسبياً في موضوعه،[8] وإلا لاغتنى البحث عن التطرق إلى المبادئ والمقدمات، ولاتّجَه إلى التوسع في اعتبار النتائج والغايات؛ أو لَتوسّع في تمحيص المقدمات أخذاً وردّاً على ما أتى به أسلافه وأقرانه، وهو في حالنا مشروع لا يزال قيد التدشين.

والباحث بطبيعته مشتت بين الانتباه إلى أوليّات الموضوع مدار البحث والالتفات إلى خلاصاته. فإن خص بحثه بالأوليات وحسب، غيّب عن قارئه النتائج، فأجهده دون مردود. وإن هو انتبه إلى الخلاصات وحسب، اضطر للتصدي للمقدمات أحياناً بتكرار المصطلح كما يأتي في الأصول، بلا شرح ولا رويّة، لاندفاعه نحو الكلام عن الغايات؛ أو لاضطُر للتوسع في عبارته حدّ الالتباس، بسبب تغاضيه عن تحديد فهمه للأوليّات. وأنى يتسع المقام للفرد بتغطية الأصول والعِبَر في عمل واحد، وهو محدود بغير اعتبارٍ ومن غير جانب؟ لذا لا يبقى أمام الباحث سوى الخضوع لضرورة الحال والتواطؤ مع قصور الآلة، فيجمع بين الكلام على المقدمات ونتائجها حسب ما يسمح به المقام ودرجة الاختصاص. من هنا لا أزعم استيفاء حق ما أتيت

[8] نخص الأبحاث باللغة العربية لأن خلق بيئة بحثية فاعلة ومثمرة في ثقافة ما إنما يتهيأ بالاعتماد أساساً على ما أُنتِج باللغة الأم، ومن ثم الاستعانة بالمصادر الأجنبية، وهو عكس الحال الراهن عندنا في مباحث الفلسفة الحديثة. وللباحث أن يتفاءل بما ستأتي به الأيام، إذ نجد حرصاً على هذا النوع من العمل التأسيسي فيما أُصدر حديثاً بخصوص كنط وفلسفته. نخص بالذكر هنا كتابين بالغَي القيمة: **كانط وأنطولوجيا العصر**، تحرير أحمد عبد الحليم عطية، و**كانط راهناً**، لأم الزين بنشيخة-المسكيني. تأتي قيمة هذين العملين في الانتباه المُولى لما كتب عن كنط بالعربية (خاصة كتاب أحمد عطية) وتناول ذلك بالنقد والمراجعة والتطوير، وعن كيفية الاستفادة من مما كتب عن كنط للتعاطي مع واقعنا الراهن (خاصة كتاب بنشيخة-المسكيني). راجع قائمة المراجع للتفاصيل.

به، بل قصارى الجهد الإسهام في سدّ ثغرة أو توضيح ملتبس أو إضافة معلومة. فإن شجع البحث الذي بين يديك على الرجوع إلى الأصول لتصويب القول والارتقاء بالفهم، إما لقصور في اطلاع المؤلف أو لخلل في منطقه، فذلك حسبي.